READ THE ROOM
جـس نبـض

#١

خاتمة الأحزان الجندرية

سونيلا
موباي

مفردات
Mophradat

«جس نبض» #١
خاتمة الأحزان الِجندرّية

كتابة: سونيلا موباي
تحرير: مي أبو الدهب وكريم قطان
تدقيق: يزن أشقر
تصميم جرافيكي: سوار قريطم
تكليف ونشر «مفردات»

هذا الكتيب جزء من مشروع «أصوات متميزة» وهو مدعوم جزئيًا من قبل وزارة الخارجية الألمانية، ومنتَج بدعم من المجتمع الفلمنكي وبالتعاون مع مؤسسة أليانز الثقافية.

Auswärtiges Amt وزارة الخارجية

Allianz Kulturstiftung ... for Europe

مفردات
شارع «لاباتوار» ٤
بروكسل، ١٠٠٠
بلجيكا

www.mophradat.org

© مفردات ٢٠٢١

هذا النص شهادة في ورشة انعقدت الربيع الماضي، تندرج ضمن سلسلة فعاليات ومشاريع تسعى إلى التفكير في كيفية التعامل مع الجندر باللغة العربية خارج سيطرة سَدَنتها، كما فعلت الورشة ا المنعقدة في تونس[١] قبل عام ونصف، أو قاموس الجندر[٢] الذي أنتجته شبكة دعم لبنان منذ بضعة أعوام، أو البحث الميداني[٣] الذي نشرته منظمة معنية بالجنسانية حول تفاعل عائلات فلسطينية مع تجارب أولادها الجنسانية والجندرية المختلفة. ركّزت هذه الورشة على طرح المسألة على الممارسين والممارسات في مجال الفن والإبداع واستخدامهم•ن للغة العربية بالتجارب المختلفة التي يعيشونها ويخوضونها.

وكمحاولةٍ مني في تشويش ثنائية التذكير والتأنيث، سألجأ أحيانًا إلى العامية أو العربية الوسطى، وأحيانًا أخرى أتناوب بين المؤنّث والمذكّر، أو أورد الاسم بالصيغتين (كتّاب وكاتبات مثلًا)، وسأعتمد كلمة «جندر» لتدلّ على أداء الأدوار الاجتماعية المبنية على تصنيف الجسد جنسيًا عند الولادة. ورغم من أنّ الكلمة دخيلة، فإنها تكرج على اللسان بالعربية بشكل أسهل بكثير من مصطلحي «جُنوسة» أو «النوع الاجتماعي» المعرّبين.

«ما التأنيثُ
لاسمِ الشمسِ عيبٌ
ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ»
- المتنبّي

المراجع

١ https://inkyfada.com/ar/2020/12/18/الفصل1--اللغة-السلطة-تفكير-تفكيك/

٢ https://civilsociety-centre.org/resource/gender-dictionary-traveling-concepts-and-local-usages-lebanon-قاموس-الجندر-مفاهيم-متنقّلة

٣ http://www.alqaws.org/ckfinder/userfiles/files/alqaws_Family_report_2021_webview.pdf

المقدمة

قبل بضع سنوات أُجري معي حوار بالإنجليزية حول تجربتي الشخصية كشخص لا معياري•ة تخصّصت بالأدب العربي. وُجّهت إليّ خلال الحوار استغاثة من قبل تلميذة في اللغة العربية تعبر عن يأسها من إتقانها؛ ليس لصعوبة قواعدها فحسب، بل بسبب جندرة العربية الصارمة والقامعة للمرونة الجندرية التي تظل حاجزًا بين تلك التلميذة وتعمقها في اللغة. أجبتها آنذاك أنّ هناك ضوء ينتظرها في آخر النفق المظلم؛ ضوء ينبعث من مفارقات وغرائب نتجت عن تعقيد القواعد. أشعر الآن كأنني كذبت بعض الشيء. لا شك في أنّ العربية -فيما يتعلق بالجنسانية والجسد بحضوره الإيروتيكي والشهواني- غنية بالمفردات والمصطلحات والأخبار وانعدام الحياء والاحتفاء بالشهوة. إلا أنّ الأمر لا يبدو كذلك في أكثر النصوص، ولا يتعدّى الجنسانية إلى تحدّي الثنائية الجندرية، حتى في النصوص القليلة التي تتناول مواضيع كظاهرة المخنّث والخنثى.

تذكرتُ الورشة المقامة حول اللغة الشاملة والسلطة والجندر وتصريح إحدى المشاركات بأنّ تقليص العربية ليس حلًا ولا اللوذ إلى لغات أجنبية، فاتهام العربية بأنها لا يمكن استخدامها للتعبير عن قضايا الجندر اتهام كسول. بدورنا تجادلنا حول المسألة التي ترددت في عدة مداخلات على مدار ورشتنا والمتعلقة بتحديد هدفنا: تحييد اللغة أم المزيد من التأنيث؟ أم هل علينا نزع التذكير بدل التحييد أو الشمولية لاسترداد ما أُقصي عنا؟ هل نسعى إلى لغة شاملة تحوي كل الجندرات وتشجع التعدّد الجندري؟ هل نسعى إلى الشفافية والتبسيط أم الغموض في مواجهة منظومة الهيمنة الذكورية على اللغة خوًا وأسلوبًا؟ فكما قالت إحدى المشاركات، فإنّ طغيان المفرد المذكّر (هو/he) على اللغة واستخدامه كضمير محايد وأصل مفترض يتمّ حتى من قبل أكثرنا تحررًا ونسوية عندما نتطرّق إلى القضايا المجرّدة. هذه خاصّية مشتركة بين لغات عدّة، وتُوظّف في نُظمها المعرفية التي تهيمن على تفكيرنا وتعبيرنا وتُقصي النساء واللامعياريين على اختلاف هذه اللغات لأنها أساسًا تغيّبهم عن الوجود. لذا، كل مواجهة للمذكّر تستنزل اتهامنا باللاعقلانية. شاركتُ في الورشة المقامة حول إلغاء جندرة

اللغة العربية في بداية نيسان من هذا العام والتي عُقدت على منصة زووم. كانت خلوة مصغّرة انضمّ إليها ١٥ مشارِكًا ومشارِكة يعملون في مجالات متنوعة كالكتابة والترجمة والتحرير والفن التشكيلي والتصميم الغرافيكي: من فلسطين؛ ومصر؛ وتونس؛ والعراق؛ والسعودية؛ ومقيمين•ات بين أوطانهم.ن أو في وبرلين؛ أو لندن؛ أو هولندا؛ أو نيويورك. كان هناك ليلى وعمر من الجهة المنظّمة؛ مها من فلسطين (مقيمة في برلين)؛ إيمان من مصر (مقيمة في لندن)؛ سعاد وهانا وأمنية وإلهام وأسامة من مصر (أسامة مقيم في برلين، وسعاد مقيمة في نيويورك)؛ سلمى من تونس؛ حياة وفؤاد من فلسطين؛ سَوْمَر من العراق (فؤاد وسومر مقيمان في هولندا)؛ وعد من السعودية؛ وكاتبة هذه السطور التي تنحدر من الهند وتقيم حاليًا في نيويورك. استغرقت الورشة ثلاثة أيام سبقتها جلسة تعارفية وجيزة عشيةَ اليوم الأول. تولّت مها وإيمان توجيه اليومين الأولين وتولّت سعاد توجيه اليوم الثالث. تراوحت لغة النقاش بين عدة لهجات عربية حسب انتماء المتحدثين•ات بتواتر، وتخللت الجلسات الكثير من الاستطرادات الظريفة والضحك ومشاركة النوادر والطُرف الشخصية والتعرف على قطط وكلاب بعض المشاركات، أمر لطّف الأجواء وخفّف من مشاعر الوحشة والإرهاق الذي سرعان ما يسود الاجتماعات الافتراضية المطوّلة.

الجزء الأول: ٢٧ و٢٨ آذار/ مارس

مساءلة السؤال

بدأنا بالإجابة عن أربعة أسئلة: ماذا يعني إلغاء الجندر/التحييد الجندري لأصدقائنا؟ ماذا يعني إلغاء الجندر/التحييد الجندري لأمهاتنا؟ (تساءلت إحدانا «ليش بس أمي مش أبي كمان»، كأن الآباء ميئوس منهم أصلًا في هذا الموضوع؟) ثم ماذا يعني إلغاء الجندر/التحييد الجندري عند للآخرين؟ وأخيرًا، ماذا يعني إلغاء الجندر/التحييد الجندري لنا؟ ثم طُرح السؤال: هل كنتم ستغيّرون أجوبتكم الآن بعد الاستماع إلى أجوبة الآخرين؟

قالت هانا إنّ لاحقة «ing-» في «ungendering» (أي «اللاجندرة») تستثير مخيلتها أما بادئة «un» فتضايقها. ذكر فؤاد أنه قال مرة بعفوية خلال اتصال هاتفي «أنا عارفة!؟» فأعقب ذلك لحظة صمت مربكة على الطرف الآخر. ذكرت أنا أنّ بعض أصحابي يعتبرونني شرطة أخلاق جندرية كوني أصحّح للآخرين كيف يتوجّهون إلي، يعني أوقات بحسّ كشخص لا معياري أني براقب أو بتأمل في الأداء الجندري تبع الآخرين أكثر من أني بفكر بهويتي الجندرية، بينما يعتبرني البعض الآخر متساهلة زيادة عن اللزوم فيما يخصّ التوجّه الصحيح، إذ يحدث أن يصحّحوا لي كيف أتوجه لهم ولأصحابهم. قالت مشاركة أخرى إنّ «اللاجندرة» هو أن تستطيع الذهاب من نقطة إلى نقطة دون أن تضطرّ إلى التفكير بهويتها الجندرية، ثمّ أخبرتنا حياة أنه في صغرها كانت أمها تشتري لها ثيابًا ولّادية لأن فيها جيوبًا وأنّ بعض أصحابها يعتقدون أنّ اللاجندرة مجسّدة في اللباس الموحّد.

ثمّ طُلب منا أن نرسم خريطة للطريق الذي أوصلنا للمشاركة في الورشة، أي أن نصوّر بالكلمات أو الرسوم الأسئلة التي تخالجنا حول الجندر وهويتنا الجندرية التي دفعتنا للانضمام، فقام كل واحد وواحدة منا بمشاركة خريطتها ليتبيّن الآخرون أمرها بالسؤال والاستفسار. شرحت وسومر أنّ خارطتها الجندرية تنبع من كيفية تصورها للتواجد المزدوج في المكان الجغرافي. حكينا كيف كانت النساء ممنوعات من التمثيل في المسرح الإغريقي، إذ كان الممثلون الرجال يستخدمون القناع ليتمثّلوا الأنوثة. لذا،

الوجه دومًا مقنّع، واللسان مطّاطي فنتعلم كيف نلويه ونطوّعه لأجل البقاء، خاصةً نحن الذين لا نؤدي جندر الذّكر المعياري.

حكت لنا مشاركة أخرى أنّ طفلتها ذات الست سنوات تستيقظ كل يوم لتقرّر أن تكون بنتًا أم صبيًا قبل أن تذهب إلى المدرسة، وهناكَ توبّخ وتؤمر بالكفّ عن مثل هذه الترّهات. تساءلت سعاد لماذا تقترن الثنايا الجسدية حصرًا بجسد الأنثى ولماذا لا يمكنها أن تكون رجالية أيضًا؟ سعاد تؤمن بعلاقة اللغة بالمشاعر، ولا ترغب في تحديد الضمير عند التوجه إليها بالحديث كما تشعُر بأنّ المؤنّث تُغيّب عندما نتحدث عن اللاجندرة.

انعكست حيرة الضمائر فيما قالته - ليلى إحدى منظمات الورشة - وهي تلفتنا إلى الدلالة المزدوجة لكلمة «ضمير»: ما نُضمره في أنفسنا وما يُكنّى به المتكلّم أو المخاطب أو الغائب في الكلام[٤]. برأي أسامة أنّ مخاطبة الحبيبة في الشعر والغناء بضمير المذكّر نوع من الذكورية الإلغائية، لكنها أيضًا وفي هذا السياق تفقد المذكّر هويته الجندرية الثابتة، فبعض اللهجات المحكية الشامية تقول «هِنّ» بدل «هم» لضمير الجماعة الغائب وأضاف فؤاد أنّ النساء في قريتيْ بيت جالا وبيت ساحور ناحية بيت لحم يتحدثن عن أنفسهن بالمذكّر. أما لهجة حياة الفلسطينية القروية فتستخدم نون النسوة للجماعة، وتضيف أنّ أكثر وقت تكون فيه واعية بهويتها الجندرية هو عندما تتحرك في الفضاء الخارجي[٥]، كما انتبهتْ للتو أنها تقول عن نفسها «أنا جعان» وذلك رغم انتهاء اسمها بتاء مربوطة. ولم تكن عمّتها المربية تنبّه أطفال الروضة التي تعمل فيها على التأنيث في كلامهم، فخلُصت إلى أنّ أخطاء الاطفال اللغوية قد تلهمنا على تطوير الأدوات التي نتوخّاها نحن هنا، وأنّ تجربتنا كناطقين•ات بالعربية على الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي أثّرت على استخدامنا لها قراءةً وكتابةً.

أما مها وإيمان فتقاومان تغييب التأنيث بكتابة «شخصة» بالإضافة إلى «شخص»، ومها تستبدل السلاش (الـ «/»، أي الشَرطة المائلة) بدمج الضميرين مع بعض، فمثلاً تقول: «أهلًا بكمنّ». في هذا السياق، نوّهت حياة إلى أمر آخر: نقول «فرد» للحديث عن شخص و«فردة!!» للإشارة إلى جوامد تأتي مزدوجة، فنقول مثلًا: «فردة حذاء». يعيدنا هذا إلى إشكالية تصريف الجمع غير العاقل في العربية بضمير «هي»، أي بضمير الغائب المفرد المؤنّث.

شدّدتْ إلهام على أنها امرأة بهيئة أشبه بالرجولية، وأنها تحدّد أنوثتها على ذائقتها هي وليس وفق معايير المجتمع الذي يريد إخضاع الناس إلى المحاسبة على قراراتهم الشخصية، والجندر ضمن ذلك قضية مسيّسة حتى في أبسط المواقف. فمثلًا، يمنح عامل توصيل طعام لنفسه الحق بمساءلتها عن اسمها وهما في المصعد، كأنه يريد التأكد أهي ذكر أم أنثى.

لغات زلامية ولغات بناتية

قالت ليلى إننا في الواقع نتحدث عدّة «عربيات» حسب السياق الذي نجد فيه أنفسنا، والمسألة غير متعلقة بكيفية المخاطبة، بل بمن نخاطب، لأننا في الواقع لم نتمكن بعد من مخاطبة الفئات التي نريد. هذا صحيح، خاصةً وأننا كنسويات أو كويريات كثيرًا ما نقع في فخّ التقوقع الهوياتي الذي يمنعنا من تلك المخاطبة. لاقى ما قيل صدى عند المشاركات؛ عبّرت سعاد عن شعورها بالضيق من جميع قواعد وأعراف الكلام والسلوك في المجتمع الكويري واستخدام ضمير «هم» مرارًا لغرض التحييد الجندري، وأشارت إلى أنّ أسلوب كلامنا بدوره «محرّك»، شئنا أم أبينا، إذ يتطور أسلوب حديثنا بتأثيرٍ من نشأتنا على الهُوية الجندرية التي صُنّفنا بها حتى أنّ هناك أفعالًا خاصةً بأداء جندري بعينه كفعل «شلّف» (في العاميات الشامية وتدلّ على زعيق وصريخ المرأة الحانقة). إذًا، كما نوّهت حياة، لا تتعلق جندرة اللغة بالضمائر فحسب، بل بالمعاجم التي ورثناها وطبّعناها في أنفسنا، أو تلك التي حُرمنا من استخدامها في لسان حالنا اليومي وأدبنا وأغانينا وإعلاناتنا. وذكرت كيف تطور وعيها على موضعتها الجندرية في اللغة: «في يوم من الأيام عرفتُ أنّ هناك كلمات مُنعتُ من استخدامها لأنها [تُعتبر] شوارعية أو زلامية (نسبةً للزلام، أي الرجال) إذا استخدمَتْها 'البنت' ستكون مؤشرًا على أنها 'فلتانة'». وبعد ذلك، سلّطت الضوء على قضية أدقّ وأعمق إشكاليةً وهي جندرة التنكيت بالعربية، «فهناك فروقات لغوية وُضعت 'للبنات' في سرد النكات ضمن حدود معينة تختلف عن الحدود المسموحة 'للصبيان'». حينها شعرتُ أنّه سيُصعّب عليّ إلقاء النكات بطريقة منطلقة وعفوية، وأنّ نكاتي ستبيخ (أي تبدو باهتة) لأنها محدودة أصلاً. وفعلًا بعض أصدقائي الشباب يستصعبون الاقتناع بنكات صادرة من جندر غير جندرهم ويعتقدون بأنه لا توجد مؤدّيات 'ستاند أب كوميدي' «شاطرات».

هنا تدخلت إلهام: تُفضّل كلمة «خَوَل» على «مثلي» وتعتبر أنها تليق بها أكثر. فاللغة الغاضبة[٦] لها قدرات تحررية أكبر من لغة إدماجية أو شاملة لأنها لا تلتزم الصوابية السياسية ولا تمشي على رؤوس أصابعها، لذلك علينا أن نسطو على مفردات تعتبر بذيئة وجارحة؛ أي أن نقول «شرموطة» بدلًا عن «عاملة جنس» كي نستردّ هكذا كلمات تعتبر سوقية ومسيئة باستعمالها في سياقات لم تستعمل فيها في الأصل. تساءلت وعد: لماذا «نجندر» النباتات؟ هي تلاحظ أنّ الكثير من النباتات التي تعتبر «إكزوتيكية» تؤنّث تلقائيًا لأنه يُنظر إليها كأنها كائنات «مدعبلة» ذات ثنايا كثنايا الأجساد الأنثوية. فهناك الوردة والتي أشارت أمنية أنه ينظر إليها حول العالم على أنها رمز للأنوثة، وعليه يتمّ التسويق المجندر للسلع التجارية «النسائية» كالفوط الصحية التي كانت أغلفتها تُزيّن برسم الزهور والشارات «البنّاتية» (ثم توضع - يا للسخرية - في الأكياس السوداء لنخفيها ونحن نحملها!). لذا برأيها حان وقت إخضاع التصميم البصري في العالم العربي للنقد الجادّ. قابلت ذلك سومر بمعلومة طريفة: تُستعمل كلمة «وردة» في اللهجة العراقية للإطراء والمحاباة بين الرجال، الأمر الذي أكّد لي قدرة اللهجات على تشويش المنظومة الجندرية الصارمة في اللغة.

خضنا كذلك نقاشًا حول كيفية اللعب باللغة (أو بالأحرى ملاعبتها). لم أتوقع مشاركة أشخاص قادمين من مجال التصميم والفنون البصرية في الورشة، فارتبكت بعض الشيء في البداية لأني شعرت بعدم وجود أرضية مشتركة، ولكن وفي الوقت نفسه فتحت هكذا اقتراحات آفاقًا جديدة في تفكيري في اللغة. مثلًا، ربما علينا الاستفادة من انعدام الحروف الصغيرة والكبيرة في العربية كما هو الحال في الأبجدية اللاتينية. اقترحت ليلى بهذا الصدد أن نولي جانب اللغة البصري اهتمامًا؛ ماذا لو قرّرنا في سياقات معينة أن نكتب العربية حصرًا باللون الزهري تحدّيًا للذكورية الكامنة في الفصحى؟

عن بهجة الترجمة عبر اللهجات

في تمرين آخر، انقسم المشاركون والمشاركات إلى مجموعتين تولّت كل منهما ترجمة مقاطع من نص على حدة؛ رواية «قلق المساء» لماريكه لوكاس راينفيلد[٧] ومقالة لأورسولا لو غوين (أو أرسولة إنْ شئتم تعريب أنوثة اسمها بال ة) تفتتحها مصرّحةً «أنا رجل»[٨]. اللافت أنّ كل من ترجمت مقطعًا

من نص راينفلد استعملت اللغة المحكية لأنّ الراوي•ة طفل، فبالتالي من غير المجدي أن يترجم كلامه•ا إلى الفصحى، مما أدّى إلى ترجمة كل مقطع من المونولوغ الجاري في رأس الولد بلهجة المترجمة المسؤولة عن المقطع (هذا علمًا بأنّ الهُوية الجندرية للراوي•ة غير محدّدة). ارتبكنا قليلًا، ولكن ذلك أفرد مساحة للتلاعب الجندري. كان تعدد اللهجات في هذا التمرين (وفي الورشة عمومًا) مصدر بهجة، وشكّل لي بارقة أمل في قدرة التعدّد على خلق لغة عربية أكثر تحررًا، إذ تأتي كل لهجة بعباراتها وتركيباتها الخاصة بها التي أغنت الترجمات، مضفيةً على كل مقطع نكهتها الخاصة.[٩] كانت تلك اللهجات بتنوّعها وهي تطرق مسامعي مجتمعةً بمثابة تعدد جندري يتحدى التوحيد المقدّس التي تفرضه الفصحى. علّقت حياة أنها كثيرًا ما تنقل الحوارات في النصوص التي تترجمها إلى اللهجة الفلسطينية القروية كوسيلة لنشرها وتوثيقها لئلا تنقرض. وفي المقابل، كان نصيب الفصحى في ترجمة نص «أنا رجل» أوفر. راق لإلهام أننا مارسنا الترجمة عوضًا عن النقاش النظري، فحتى الذين ترجموا بالفصحى جاؤوا بحلول بديعة؛ أسامة من مجموعة نص «أنا رجل» ترجم عبارة «My first name ends in a» بنوع من التعريب بدل النقل المباشر: «اسمي ينتهي بتاء مربوطة»، وترجمت إيمان جُملة تتحدث فيها الكاتبة عن استخدامها للـ«semicolons» (الفواصل المنقوطة) ترجمة بصرية بوضع العلامة نفسها ثلاث مرات «؛؛؛». وأشارت مها إلى كثرة أفلام الرسوم المتحركة الناطقة بالفصحى وذكرت أنها كانت تكتب يومياتها وهي طفلة بالفصحى بتأثير هذه البرامج. أما ترجمتي، أنا اللامعيارية والمتمردة الجندرية، فكانت أكثر الترجمات «محافظة»، إذ وجدتُني أتّبع أسلوبًا فصيحًا دون إدخال أي عامية أو عنصر بصري، فعزمت التمرد على كلاسيكيتي المُفرطة في هكذا تمارين مستقبلًا.

المراجع

٤ جامع الدروس العربية للغلاييني (٢٠٠٣) ص. ٨٧.

٥ صدر لها العام الماضي نص رائع في تجربة المشي سيرًا على الأقدام في بلدتها باقة الغربية في فلسطين المحتلّة كشخص مصنّف أنثى جندريًا: «كم هو نصيب الإنسان من السير على الأرض؟»
https://khatt30.com/post/pales-/tine

٦ عبارة أطلقتها إحدى المشاركات في الورشة التي عقدتها مؤسسة «انكفاضة» في تونس في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٩.
https://inkyfada.com/ar/٢٠٢١/٠١/٠١/الفصل-٢-اللغة-الجندر-حراس-مفككات/

٧ Marieke Lucas Rijneveld, *The Discomfort of Evening* trans. Michelle Hutchison (٢٠٢٠).

٨ Ursula Le Guin, "Introducing Myself" in *The Wave in the Mind: Talks and Essays on the Writer, the Reader and the Imagination,* (٢٠٠٤) ٣-٧.
صدرت مؤخرًا محاولة جزئية وخجولة لترجمة هذا النص ومقاربته إلا أنّ تعاملنا معه كان برأيي أعمق وأكثر غنى وتنوّعًا:
https://raseef22.net/article/-|مررت-بأسماء-الله-الحسنى-وتمتمت-أنا-رجل

٩ هذا فضلًا عن أنّ مثل هذا التعدد أثبت وبما يقطع الشك أنّ التواصل بالعربية عبر لهجات مختلفة ليس ممكنًا فحسب وبل مثمر ولا يتطلب سوى القليل من الإصغاء والانفتاح على الطرف الآخر.

الجزء الثاني: ٥ نيسان / إبريل

أنا رجلة

افتتحنا يوم الورشة الثاني بمناقشة مجريات اليوم الأول؛ نوّه فؤاد إلى أنّ المثنّى حالة فريدة في اللغة العربية علينا الاستفادة منها، وقال فيما بعد «الورشة خلّتني أتمعّن ببعض الكلمات من جديد، وبالضمائر اللي منستعملها بالحكي بس بالأخصّ ضمائر المثنّى (اللي مش موجودة بالعاميّة) هُما وأنتُما، واللي يمكن اعتبارها محايدة جندريًّا!»[١٠]، وأضاف: «كمان غريب إنّه بالفصحى (وبالعبري كمان) منعدّ الجندر بالمقلوب: خمسة بنين وخمس بنات!» تساءل فؤاد عن اعتباطية التذكير أو التأنيث لبعض أسماء الجنس: «كلمات مؤنّثة من غير تاء التأنيث مثل أرض وسماء وشمس وطريق وذراع وإيد وميّ (ماء) بس كلمات متل قمر وعَرض وشَرف غريب إنهن مذكّر». كما أشار إلى «تأنيث الجمع لبعض الأسماء المُذكّرة في العامية الفلسطينية مثل إبّيات (آباء).» هنا وددتُ أن أقتبس من صديقي الكاتب الفلسطيني راجي بطحيش عندما قال[١١] إنّ وضع الفلسطينيين يمنحهم جنسية كويرية في ظلّ غياب الدولة ومقوّماتها!

كتب طفل النهضة المتشيطن أحمد فارس الشدياق قبل قرن ونيّف أنّ الكلمات تتوالد أو تشتقّ من حكاية صوت أو صفة، أي أنّ مصدرها شيء مادّي أو ملموس، والعكس صائب. من ناحيتها، ذكرت حياة أنّ «اللغة التي نستخدمها تصيغ الواقع بدورها أو ترسّخه في النهاية إما بحجب الخيال أو توسيعه، فنحن على المستوى الإدراكي كثير أوقات نلجأ للمذكّر تلقائيًا لما بدنا نوصف جماعة حتى إذا كنا عارفين أنها مختلطة، فمثلًا، أجد نفسي أقول معلّم بدل معلّمة أو ممرّض بدل ممرّضة.» أما فؤاد فأضاف أنّ التأنيث لا «يزبط» دائمًا وأنه لا يوجد سبب منطقي لتذكير الوطن وتأنيث الأمّة. هذا مع العلم، (كما قال أسامة بأنّ مجمع اللغة العربية «يجيز» استخدام تاء التأنيث لبعض المناصب والوظائف: مديرة ورئيسة ووزيرة وحتى نائبة، التي تعني «مصيبة» بالفصحى أو «الفاعلة» أي الزانية، الأمر الذي يعيدنا إلى مسألة السلطة على الكلام وتحديدًا صلاحية «الإجازة» التي تمنحها لنفسها مجمّعات اللغة خاصة مجمعات اللغة العربية. في هذا المضمار شاركت سلمى أنّ النساء في تونس كثيرًا ما يقلنَ «أنا رِجلة» كما قلتُ مازحة إنني

كنت أسمّي صديقتي في بيروت التي تملك مطعمًا «رَجُلة أعمال».

هنا تدخلت سومر لتقول بما إنّ هويتها الجندرية ليست بديهية من اسمها فإنه كثيرًا ما يتم «تذكّيرها» في الدعوات الموجهة إليها من المعارض والندوات، لأنهم يتوقعون استقبال رجل ثم يندهشون عندما تحضر هي، فباتت تتساءل إذا ما كانت تفوتها بعض الدعوات إلى الفعاليات الهادفة إلى إفساح المجال للنساء على افتراض أنها رجل، فبدأت تضيف ضمير «هي» (she/her) إلى نبذتها الشخصية بالإنجليزية. تساءلت: هل أستفيد من الغموض الجندري لاسمي لأنّ الافتراض المسبق أنني ذكر يمنحني نفس امتياز الذكور أم أنظر إليه كمُعين في نضالي لتحييد الجندر عن نفسي في حياتي المهنية؟ هذا وخاصّة وأنّ اسم مهنتي نفسه إشكالي بالعربية، إذ اكتسبت كلمة فنانة بال «ة» أو حتى مرادفتها المؤنّثة «أرتيست» دلالة سلبية. لكن «الدلالة السلبية لكلمة فنّانة بالعربية (المعاصرة) كذلك تحررني من التوقعات والأعراف، ويتيح لي أن أعمل ما أشاء.» ذكرت هانا ظاهرة «الفنانة التائبة» في مصر التسعينيات، كأنّ هذه الدلالة السلبية لكلمة فنانة تتأتى عن الافتراض مسبقًا بأنّ المبدع العبقري أو البوهيمي الذي يجلس متأملًا ومتفكرًا بمفرده هو حتمًا ذكر، وما الأنثى سوى ملهمة له. في حين تحدثت إيمان عن مواقف مشابهة في تجربتها مع الغربيين الذين يفترضون في أغلب الأحيان أنّ أي اسم أجنبي لا يألفونه (كفاطمة، عائشة، زينب الخ) هو اسم مذكّر، ووجود لاحقة الـ «مان» في آخر اسمها يجعلها تسكن فضاءات جندرية متنوعة أو مبهمة في معاملات رسمية وغير رسمية: عندما عملت في حقل المعلوماتية الذي يطغى عليه الذكور منحتها اللاحقة تلك نوعًا من الحياد الجندري أو التمويه عن كونها أنثى، وأنها كسومر كثيرًا ما تتساءل هل هذا امتياز وتمكين أم نوع من محو الذات.

أفادت حياة أنّ بعض النساء يحبّذن ارتداء زيّ رجالي في أماكن العمل التي فيها أغلبية ذكور ساحقة كي يشعرن بالمزيد من الحماية، وروتْ إلهام أنّ زملاءها في عملها السابق في مجال الإعلام نصحوها بأنّ توقّع إيميلاتها بحرف الحاء فقط بدل اسمها الكامل، وبما أنه لم يكن في الجريدة التي عملت بها منصب المدققة اللغوية (مع أنّ هذه كانت وظيفتها بالفعل) أصبحوا يُطلقون عليها «desk» (أي طاولة مكتب) اختصارًا لـ «desk editor»، أي أنه حرفيًا تمّ تشييئها. كما قدّمت سعاد معلومة دالة وهي أننا نجد نسبة

المخرجات في مجال صناعة الأفلام أعلى بكثير في الأفلام الوثائقية منهن في الأفلام الروائية. في هذا السياق، ناقشنا كذلك كيف تحمل بعض الكلمات دلالة سلبية بحدّ ذاتها في لهجات معينة، كلفظة «مَرا» في اللهجة المصرية.

أما هانا فتمنّت لو نكفّ عن استخدام مصطلحات من قبيل «seminal» (مَنَويْ) لوصف أمر جلل أو جسيم و«pregnant with possibilities» (حُبلى بالاحتمالات) لوصف حالة توحي نتيجتها بعدة احتمالات. روتْ مشاركة أخرى أنّ اسمها شأنه شأن أسماء عربية من قبيل صباح ونضال وسومر يطلق على الجنسين، فكان الناس يفترضون وهم يتوجهون إلى والدها أنه أب لصبي، ثمّ يستغربون أنه أب لبنت لأنّ الرجل «ما بيصير» أن يلقّب نفسه باسم بنته وأنه يرتاح لذلك. قدّم عمر مثالًا قريبًا: كلمة «virtue» (الفضيلة) ونظيراتها في لغات أوروبية مشتقّة من الكلمة اللاتينية «vir» (رجُل) والتي كذلك تشتقّ منها كلمة «virility» (فحولة).

جندرة الأصوات

١٤ دلف بنا الحديث إلى جندرة الأصوات وكيف وُضع الصوت النسائي في قالب معين. قالت حياة إنّ صوتها في الصغر كان أدنى طبقة وأنها الآن إذا ما ضحكت بصوت عالٍ تحسّ أنها تلفت الأنظار، ولذلك إذا قال لها أحدهم «وطّي صوتِك» فستشعر بالتقزيم مهما كان قصده. أما سلمى فأردفت أنّ نهي البنات عن «الفرشخة» (إبعاد الرجلين عن بعضهما) في الأماكن العامة هو كذلك نوع من تقزيم حضور النساء الجسدي. ربما ينبع استنكار صوت العويل والنحيب في المآتم ومنعهن عن التواجد والمشاركة في دفن الموتى لدى بعض المتزمتين من نفس النزعة التقزيمية. وافقتها إلهام قائلة إننا بالفطرة نصنف الأصوات مذكّرة أو مؤنّثة، فمثلًا، نذكّر تلقائيًا أي آلة طبل ونؤنّث الطبقة الصوتية الرفيعة مع أنها تختلف من أنثى إلى أخرى. طبعًا هذا يتراوح وفق البلد، إذ أثبتت التجارب أنّ بعض الأصوات عندما أُسمعت لناس في لبنان والأردن اعتبروها مذكّرة، ولكن نفس الأصوات عندما أُسمعت على الناس في مصر اعتبروها مؤنّثة. في سياق تأثير تكيّفنا الجندري على سماعنا للأصوات وتلقّينا لها، أحالتنا حياة إلى نص «جندرة الأصوات» للشاعرة الكندية والمترجمة عن اليونانية آن كارسن حيث ذكرت أنّ الإغريق القدامى كانوا يُرجعون الصوت الرفيع عند النساء إلى عدم ضبطهن لأنفسن كما يفعل

الرجال أصحاب الصوت العميق. أما أرسطو فيعدّ الصوت الرفيع دالًّا على فساد طبع الأنثى، فالكائنات الشجاعة والحكيمة كالأسد والثور والديك والذكر البشري تملك صوتًا عميقًا. ومن ناحية أخرى وعبر التاريخ، أمست النساء ذوات الصوت العميق شاذّات أو مختلّات لا يمكن للمرء (الذكر) السويّ أن يطيق الاستماع إلى إحداهن.[١٢]

كما بادرتنا سومر في مداخلة بديعة عن جندرة الأصوات بإبراز جهاز مكبّر للصوت فريد من نوعه يغيّر طبقة صوت المستخدم تغليظًا أم ترفيعًا. لفت ذلك التغريب الصوتي ونحن نسمع أنفسنا (كأنّ صوتنا بات يعود إلى شخص آخر) انتباهنا إلى مدى تأثير طبقة صوتنا على متلقّيه، فبتنا نعي كيف يؤثر ذلك بدوره على ما نقول، كما انتبهنا إلى الفرق بين سماع أنفسنا في أذهاننا ونحن نتحدث وكيف يسمعنا الآخرون: أسمع أنا طبقة صوتي أرفع وأقرب إلى صوت أنثى ممّا تبدو عندما أسمع تسجيلًا له، فأشعر بالاغتراب وكأني أسمع صوت أحد غيري.

السلاش، أو حرقها

١٥

ثمّ وبتوجيه من سعاد تخيلنا ماذا لو اختفت السلاش البغيضة أو أعلنت الإضراب. ماذا كانت ستقول؟ ماذا كنا سنفعل؟ كيف يمكن أن يساعدنا «تشخيص» علامات الترقيم؟ تخيّلت إيمان أنّ الأرض المؤنّثة قد بلعتْ الشَّرْطة حتى لم يعد يظهر منها إلا نقطة، وأنّ الأرض الآن تتفاوض معنا، ممسكة الشَّرْطة من الأسفل. أما بالنسبة لي، فهكذا تمارين تتطلب وقتًا أطول مما كان متاحًا حينذاك، ولكني استطعت كتابة الكلمات التالية:

«أعلنت اختفائي عنكم لا خصّني بالتأنيث ولا بالجمع السالم
أنا علامةٌ حالم، أنا حلمة عالم على حَلَمات العوالم
خطٌّ أنا ليش ميّلتونَي لا بدي هيك ولا هيك
صرت تعبان بفضّل تنيموني.»

وكما أسلفت، وسّعت لي المقاربات القادمة من خلفية الفن والتصميم البصري آفاقي اللغوية، فتذكرت أنّ اللغة ليست حكرًا علينا نحن الكتاب، بل لها جوانبها البصرية التي بإمكانها التأثير على الكتابة والكلمة المكتوبة. فمثلًا، طرحت سلمى إمكانية ابتكار أحرف جديدة، وطُرحت أيضًا علامة

النجمة * أو المعقوفتين () بديلًا عن الشَرطة المائلة. شاركت الكل تجاربهن مع الشَرطة وكيف يتعاملن معها؛ تستعمل سومر الشَرطة فقط خارج سياق الجندر عند ذِكر جنسيتها المزدوجة، وأحيانًا تتعمد استخدام الضمائر كي لا تورّط نفسها في استخدام ضمير «they/them» المحايد لأجل الصواب السياسي، بينما تنظر إيمان إلى علاقتها بالشَرطة من منظور تعددية المعاني وإبقائها مفتوحة، حتى أنها ستحزن إنْ اختفت الشَرطة المائلة. تؤثر حياة استخدام المعقوفتين لإبراز الـ «ة» أكثر في أثناء القراءة، بينما خالفتها مشاركة أخرى قائلة إنها ببساطة لا ترى أناقة الـ / والـ () بجوار الـ «ة» من الناحية الجمالية والبصرية البحتة.

من ناحية، يهدف التدقيق اللغوي أن يجعل الجملة أكثر سلاسة كي تصل المعلومات بشكل أسرع، لكن ومن ناحية أخرى، يتعلق الأمر أيضًا بغرض النص ونوعه (الـ genre) وطريقة تقديمه إلى القرّاء، فحيادية اللغة ليست من المسلّمات في النصوص الأدبية، بل دومًا مطروحة للنقاش. بهذا الصدد، قالت سعاد إنه يمكن في بادئ الأمر أن تتدخل الشَرطة في هذه الحيادية لتكون نوعًا من التشويش الخلّاق والمزعزع للنظم الجندرية واللغوية المهيمنة، ولكنها إنْ تكرّرت وأصبحت معتادة أو متوقّعة فسرعان ما تتحوّل إلى مصدر إزعاج وعائق أمام أي قارئة. وكما قال فؤاد، يتمّ استخدام الشَرطة كوسيلة لإرضاء الجميع تلبيةً للاحتياجات المعاصرة، ولكن بطريقة مبتذلة وعلى حسب فحوى النص، فما يزعجه أكثر من مسائل الصوابية السياسية والشمولية الجندرية هو «التقطيش» المتكرر لسيرورة القراءة، ويزداد الإزعاج مع تكرار الشَرطة. لذلك فهو على غرار رأي سعاد؛ لا يعارض استخدامها في حالات معينة، إلا أنّه يرى الطامة الكبرى في اللجوء إلى إقحام حلول من لغات أخرى إلى العربية عنوةً، فإذا عدنا إلى تاريخ الشَرطة نجد أنها أُدخلت إلى الانكليزية شأنها شأن ضمير «they» بدل «he» للتحييد الجندري، أي كوسيلة بديلة لإرضاء الجميع. ولكن لا مفرّ من حلول أكثر جذرية، وبإمكان المؤسسات أن تبذل جهدًا لإيجاد هذه الحلول بدل إعادة تدوير الشَرطة إلى ما لا نهاية. وبرأي سعاد لا يمكن أصلًا أن تكون لغة نصوص المؤسسات حميمة، فهل يُعقل أن نحاول تأنيثها؟ وعليه، لنحاولْ ألا نبقى أسرى قوقعة الفن والمفكرين في لغتنا. هذا ما أكّدت عليه المترجمة والكاتبة السورية نسرين في الورشة المقامة في تونس، محاججةً بأنّ كسر

القواعد أوقات أصعب، بل «أقمع» من القواعد نفسها كما هي الحال مع تكرار الشَرطة المائلة، وأنه ينبغي أن نوجّه نضالنا صوب تبسيط أدوات التعبير هذه أكثر بدلًا من فكرة توسيع التمثيل في اللغة، ولذلك لا ضير من تكرار الكلمة بالصيغتين؛ مثلًا، ناشطين وناشطات، لأنّ ذلك أبسط.

أين تكمن سلطة الكلام وكيف نطوّعها؟

إذًا، الحق ليس دائمًا على اللغة بنحوها ومنظومتها الصرفية، بل أيضًا على طريقة تفكير المستخدم•ة، فإذا وُجدت الذكورية في المجتمع سينعكس هذا حتمًا في لغة أفراده. لا تكمن السُّلطة داخل اللغة (أي لغة) بحد ذاتها، بل تُستمدّ من علاقات القوى بين المتحدثين. وكما قالت حياة ليست اللغة سوى «وسيط مطواع» يتماشى مع طرائق تفكيرنا. ورأى أسامة أنّ جوهر المشكلة يقع في الكتابة، إذ تكيّفت اللهجات مع الأوضاع المتغيرة وبسّطت نفسها، واقترح أن نستخدم الحروف الزائدة التي تستعمل في الأردو والفارسي مثل پ وچ وگ في سبيل إيجاد لغة أكثر انفتاحًا وتحرّرًا. كذلك، شعر فؤاد «إنّه الحكي بالعاميّة بسهّل اللغة وبوفّر حلول سحريّة للكلام! « قد يكون محقًّا، ولكن اللهجات كثيرًا ما تفوق الفصحى ذكوريةً وتنميطًا للأدوار والأداءات، والخروج عن الاصطلاح، والكليشيهات المتعارف عليها أصعب فيها منه في الفصحى، كما أثبتت لي تجربة[١٣] خضتها في ترجمة الشعر الإيروسي عن الإنجليزية إلى كل من الفصحى والمحكيّة.

يجدر بنا في هذا السياق إيراد بعض الحلول البديلة الأخرى للشَرطة المائلة التي طرحت على منصة تونسية للكتابة العربية «الشاملة»[١٤] (مع حفاظنا على إشكالية فكرة الشمولية): بدايةً، الوصل بخط أفقي للأفعال والمركّبات الإضافية، مثلًا: «يساعدون/ـن» و«خداعهم/ـن». إلا أنّ هذا لا يغني عن الشَرطة وبالتالي لا يمنع تقطيش القراءة. والحل الآخر أن نجمع بين الوصل بنقطة متوسّطة «•» للأسماء والأفعال (مثلًا: «السابقين•ات و«ت•يهتمّ») وحرف العطف للأسماء الموصولة؛ مثلًا: «الذين» و«اللواتي». بالنسبة لي، الحل الثاني أفضل بصريًا من الشَرطة، إلا أنه لا يلغي كليًا تقطيش سيرورة القراءة، وبالتالي قد يشكل حلًا وسطًا ريثما تنفتح قرائح الأمّة الكويرية، ونجد (أو نُوجِد) حلًا جذريًا أو نقوّض قواعد العربية الجندرية من أساسها لنتجاوز ثنائية الرجل -المرأة والمذكّر- المؤنّث. قد

يكون حلّ مها في دمج معطوفات التأنيث والتذكير للإضافات وحروف الجرّ -«بكمنّ» و«فيكمنّ و«عليكمنّ»، إلخ- أسلس من حيث سيرورة القراءة وأسهل هضمًا للقرّاء، إلا أنه في نظري ما زال يخالف هدف التبسيط بتركيزه على الشمولية، فتشديد المؤنّث بهذه الطريقة لإبراز النساء في اللغة لا يؤدّي تلقائيًا إلى المزيد من التحرر، بل قد يخلق نوعًا من الأبارتهايد الجندري في اللغة على أساس قاعدة التساوي بالتمايز.

ختمنا الورشة بمناقشة شكوى عدم عثورنا على كلمات مناسبة بالعربية تعبّر عمّا نشعر به أو نعيشه خاصة فيما يخص تجاربنا الجندرية والجنسانية. قالت حياة إننا إذا فكّرنا بالعربية جذريًا، أي بالاشتقاق من الجذور، فسنستسهل أكثر إيجاد الكلمات، لأنّ التصريف متاح دائمًا، وأنّ تلك الخاصية في بناء اللغة تصبّ في صالحنا. كما تخطر لذهنها حلول كثيرة على الصعيد الشخصي، مثلًا: «أن أتخفّى بملابس شاب لأجلس في مقاهي 'الزلام' المنفصلة وأتابع هذه الأحاديث التي لا أعرف مجازاتها والتي أودّ تكرير استخدامها بصوتي الذي نما معي في العالم وأن أخترع على هذا الأساس معجمًا جديدًا باستخدام كلمات موجودة في اللغة، مع الحرص على إحيائها وترتيبها بنمط معين، أو نحت كلمات جديدة تتناسب مع مطالبي.» وذكّرتنا بِسمات اللغة الأساسية التي لا يجب أن نغفلها، فلو بطّأنا سرعة كلامنا وفككنا حروف لغتنا سنجدها في نهاية الأمر أصواتًا مجردة، ولكنها أيضًا ميزتنا البشرية التي تفصلنا عن الكائنات الحية الأخرى، كما أنها طاقة توليدية لا تنتهي وتدفعنا إلى اختراع وقائع جديدة لم نكن قد تخيّلناها فيما مضى.

جندريْن إلى الوراء وجندرات إلى الأمام

يكتب أحمد بيضون عن العلاقة بين الجذر الثلاثي «ك-ل-م» وعكسه «م-ل-ك»؛ أن يَكلَم يعني أن يَجرَح، فالمكلومُ هو المجروح، ويستشهد بابن جنّي الذي يقول إنّ الكلام سبب كل شرّ وشدّة. فالكلام مرتبط بالقوة، وحافِظ الكلام أو صاحبه هو صاحب السلطة. وهناك فرق بين الكلام والقول، فكل كلام قولٌ وليس كل قول كلامًا، وبالتالي «الكلام للسلطة وما سوى السلطة قولًا بقول». [١٥]

إذًا، هل بإمكاننا أن نجترح من أقوالنا كلامًا عربيًا خارج مُلك السلطة

(ومِلكها) نكون فيه أصحاب القرار؟ بعدين من نمثل «نحن» بالضبط؟ بالنسبة لي أنا، بدل أن أدّعي تمثيل فئات قد لا تقترب يومًا من تشكيل أغلبية في المجتمع كالمثليين أو العابرين أو اللامعياريين؛ فئات دائمًا تُتهم بفرض أجندتها وممارسة «طغيان الأقلية» على الأغلبية، الأوْلى بي أن أنسب نفسي وهذه الورشة، على اختلاف هوياتنا الجندرية والجنسانية، إلى من أودّ أن أسميهم «المفسدين في اللغة»، أي المشاغبين والمشاكسين اللغويين. غايتنا أن نعبث بمنشآت اللغة الراسخة والمقدّسة عسانا نُحدث شرخًا فيها ينفذ بنا إلى لغة عربية أسلس وأقلّ تجهّمًا وأخفّ وطأةً وأكثر انفتاحًا على التلاعب والمداعبة. وتتطلب منا روح الدعابة والتجريب المستمرّ هذه أن نسلّم أنفسنا للغة خارج المعايير والقيود المفروضة عليها من قبل حرّاسها وألا نخشى الفشل الذريع، بل نتضحّك عليه بملء الفم، فنحن لا نستطيع أن نخمّن أو نتنبأ أي من المصطلحات الدخيلة التي نستوردها إلى اللغة من خارجها أو نستنبطها من باطنها سوف «تُنقش» وتدرج وأي منها ستبعث على المسخرة. فعلى سبيل المثال لا أستطيع أن أشرح لماذا أحسّ كلمتيْ «جندر» و«جنسانية» زابطة بينما لا أحسّ كذلك بجنوسة ووالدية «parenting».

١٩

الاسم على أنواعه عنصر الكلام الذي يعتبر نواة اللغة والذي لا يمكن أن توجد بدونه جملة مفيدة. أرى الجندر متعلقًا أساسًا باسم أو بفاعل أي فعل في أي جملة مفيدة. الاسم في العربية (كما في عدة لغات أخرى) مقسّم إلى مذكّر ومؤنّث، وهناك لغات أخرى كالألمانية يوجد فيها جنس ثالث «محايد» (ويشمل أسماء نعتبرها مجندرة بديهيًا مثل ولد أو فتاة)، في حين أنّ ثمّة لغات أخرى كالفارسية والتركية لا يوجد جندر في نحوها أساسًا. وكما نعلم، لا يترجم انعدام الجندر نحوًا إلى تحرّر جندري على أرض الواقع. تشاركنا في الورشة الكلمات والأسماء التي «يُساء جندرتها» وناقشنا اعتباطية التذكير والتأنيث، وهي أمر لا يقتصر على العربية فحسب، فكلمة كتاب العربية (الدخيلة على لغات أخرى) مذكَّرة، أما بالهندية فمؤنّثة وبالألمانية محايدة. إذًا هل هناك جندر «صحيح» أو «أصلي» لأي اسم سواء أكان اسم علم أم كان اسم جنس أم كان اسمًا من أي نوع آخر؟

يقسّم مرجع «جامع الدروس العربية» للشيخ الغلاييني الاسم المذكّر إلى قسمين: حقيقي ومجازي، أما المؤنّث فيقسّم أربعة: حقيقي ومجازي ولفظيّ ومعنويّ. الحقيقي في الحالتين هو ما يدلّ على ذكر أو أنثى من الناس،

أو الحيوان، والمجازي في الحالتين هو ما يعامَل معاملة الذكر أو الأنثى من الناس والحيوان، ولا علاقة له بالجنس البيولوجي أساسًا: كـ«كتاب» أو «شمس» إلخ، أي أنه يُجندر اعتباطيًا. أمّا المؤنّث اللفظي فهو ما لحقته علامة التأنيث كالتاء المربوطة، سواء أدلّ على مؤنّث أم دلّ على مذكّر، فهناك مثلًا أسماء العَلَم للرجال كأسامة وحمزة (وهي أسماء جدًا رجولية بالمناسبة). وتضاف تاء التأنيث لتمييز الواحد من الجنس في المخلوقات «كتفاح» و«تفاحة». هنا تتجلى الاعتباطية المذكورة أعلاه بوضوح أكبر، فما دخل الموز أو الكتاب أو الشمس بحقيقة الجنس البيولوجي أو ما دخل عضو من أعضاء الجسم كالعين واليد؟ علمًا أنه لا يختلف شكلًا أو عددًا بين جنس وجنس! والأغرب من ذلك تأنيث جنس حيوان بكامله كالحية أو الشاة سواء أكان المشار إليه أنثى بيولوجيًا أم لا. ولننظر في التاء المربوطة؛ هي لا تدلّ دائمًا على التأنيث، إذ تُضاف للمبالغة في الوصف (كعلّامة، رحّالة الخ)[١٦] ولبعض أوزان جمع التكسير (زنادقة، فلاسفة إلخ) والتي تصرّف كباقي أسماء الجمع المذكّر السالم. وبالمقابل بعض الظواهر الفيزيولوجية الخاصّة بالإناث لا تلحقها تاء التأنيث (كحائض وحامل). تدلّ زيادة التقسيمات لدى المؤنّث على أنّ التذكير في النحو العربي كما في لغات أخرى هو الأصل والتأنيث الفرع، وأنّ هناك منظومة كاملة وُضعتْ لجعل المذكّر واضحًا سلسًا وغير مبهم، أما الإناث، فيبدو أنهنّ أوجدنَ لغرض المؤانسة: حوّاء «اشتُقّت» من ضلع آدم لكي «تؤنسه»، حيث استُبدل السين في لام الفعل بالثاء، ربما لتمييزه عن الأنس العادي. وكلمة أنثى أصلًا مشتقة من جذر «أ-ن-ث» الدالّ على اللين والطراوة والذي أتحفنا بإحدى أغرب الكنايات في العربية: «الأنثيين» التي تكنّى بها الخصيتان! ناهيك عن تذكير أعضاء الجسد المصنّف أنثى: مهبل وثدي ورحم وحتى كسّ. فهل نعدّ هذا نوعًا من «التكوير» الكامن في العربية علينا الاحتفاء به أم نعدّه دليلًا آخر على إلغاء المؤنّث فيها؟

يجدر بي في هذا السياق أن أستعيد نصًا لي تناولت فيه احتمالات التحرر الجندري[١٧] الكامنة في العربية والعربية الكلاسيكية تحديدًا، مثلًا عن إمكانيّة استبدال كلمة «رجل» بـ«امرئ» أو «المرء» وهو صنو كلمة امرأة، ثم عن إمكانية الاستفادة من الكلمات الأضداد وهي مفردات تدلّ على الشيء ونقيضه ككلمة «مولى» التي تعني العبد والسيّد كلاهما. بإمكان أبحاث

قادمة أن تنبش بطون المعاجم والشعر وكتب النحو لنكتشف مثل هذه الثغرات في الحصن المنيع الذي شيّده شيوخ اللغة، فكُلّما تعقدت القواعد وُجدت فرص التلاعب بها. ومن أحلامي في المدى البعيد مشروع معجمي لاستجماع هذه المفردات والعبارات والتركيبات في مكان واحد ليكون سلاحًا في يدنا نحن المفسدون في أرض اللغة الطهرانية.

عن الخِتام والجَنادِر

لعلّ هناك جانب إيجابي لتجربة إقامة الورشة على منصّة زووم، أي على أرضية افتراضية، والمشاركون•ات موزّعات على عدّة تواقيت وتفصل بينهم حدود وبحار يصعب عبورها. فانعقاد الورشة على أرض الواقع كان على الأرجح سيحول دون جمع المشاركون•ات في مكان واحد، ولكن من الجانب الجسدي، جعلت استعارة الواقع هذه، أو لنقلْ تصنّعه، تجربة التفاعل مع المتواجدين•ات مقتصرةً على وجوههم ووجوههن في أغلب الأوقات دون حضور الأجساد المتصلة بتلك الوجوه. ومع تعدّد الوجوه المقطوشة بتعدّد الخانات، كان الأمر على الصعيد الجندري غريبًا إذا تمعنّا فيه من ناحية التلقّي البصري البحت، إذ أمست كل الأجساد التي تتفاعل معها المشارك•ة سواسية على الشاشة بصرف النظر عن أحجامها وأشكالها المتفاوتة، ولأنّ للشاشة بُعديْن فحسب، تُسطَّح هذه الأجساد كلها وتُحشر في مساحة بصرية محدودة بإطار الشاشة. ثم تخلق متابعة الدردشة على طرف اليمين بالتزامن مع تعدّد خانات الوجوه نوعًا من التعددية الصوتية أقرب إلى التناشز (الصامت، - كونه في الذهن) كأنّ المشارِكة منّا واقفة (أو قاعدة!) وسط تنافر صوتي يغلب على السمع والبصر. بالطبع هناك جانب إيجابي لهذا التناشز؛ وَفْرة تشارك المعلومات بفترة قصيرة مقارنة باجتماع «عضوي» والتجاوبات التي تحدث «على جنب» متزامنة مع النقاش الرئيسي، ولكنها في نفس الوقت تبعث على التشتّت الذهني وتصعِّب استيعاب المعلومات. زاد على هذا التشوّش فَرق التوقيت بيننا، ممّا أحدث تفاوتًا في الاستيعاب بين المشاركين•ات وتشرذمًا في التواصل بينهم. ليس التشرذم بالضرورة أمرًا سلبيًا في ورشة تبحث في إمكانية تحرير اللغة من قيودها، ولو لم يكن دوري أن أراقب وأدوّن ما يُتداول ويُناقش بالإضافة إلى صفتي كمشاركة، لكنتُ سمحت لنفسي باحتضان هذا التشتت والغوص فيه بتردّد أقل.

ختامًا، أودّ أن أموضع هذه الأفكار حول التحرر الجندري واللغة في اللحظة الراهنة التي أكتب فيها. ينتفض الفلسطينيون مرة أخرى استعدادًا لمواجهة مرحلة جديدة من العدوان الصهيوني المسعور ويحرق وباء الكورونا الأخضر واليابس حرفيًا في الهند مسقط رأسي، إذ بدأت المساحة المتوفرة لحرق أو دفن الجثث تضيق من كثرة الوفيات. لن تُعين أقصى درجات التحرر الجندري اللغوي الفلسطينيين على ردع القنابل الإسرائيلية التي تقع على رؤوسهم أو الهنود على توفير الأكسجين، فلا الاحتلال ولا الوباء يفرّق بين جسد ذي هُوية جندرية معيارية ولامعيارية. إلا أني أشبّه ما نسعى إليه بما فعله الطفليْن في غزة اللذين تمكّنا من إنقاذ سمكتهما بعدما قصفت إسرائيل مسكنهما، وتحديدًا بإصرارهما على تجنيب هذا الكائن العذاب الذي تكبّداه والاحتفاء بالحياة وسط الدمار. أن نواصل التفكير في أنواع من التحرّر أكثر عمقًا وأبعد أثرًا من التحرّر السياسي المباشر هو أن نواصل إصرارنا على الحياة والكرامة بأقصى ما نطمح إليه منهما وليس بالقيود التي تفرضها علينا أرض الواقع. لا مناص من محاولة خلق كلام جديد عن الجندر واللغة بالعربية لأنّ نضالنا من أجل الحرية لا يتجزأ. وكما غرّد أحدهم، «أحلى اسم باللغة العربية هو نضال وأحلى من معناه أنه مناسب لكل الأجناس». على نضالاتنا أن تكون كما الاسم؛ لكل الحريات والأجناس.

تبدو أورسولا لو غوين كأنها تذكّرنا بخطورة نضالنا: «اللفظ سحر، وللكلمات قوّة، وللأسماء قوّة. والكلمات أحداث؛ تفعَل وتغيّر وتُحدِث تحوّلًا في القائلة والسّامعة.»[١٨] فهل بإمكاننا استخراج أو اشتقاق السحر من العربية، لغة الجبر والخيمياء والإعجاز الإلهي؟ فلتكنْ خاتمة الأحزان الجندرية.

سونيلا موباي
نيويورك، حزيران ٢٠٢١

المراجع

١٠ هذا علمًا بأنّ المثنى سقط جزئيًا حتى في العامية، كما تجدر الإشارة إلى أنّ ضمير «هما» مجندر؛ أي يخضع بالفصحى للتمييز الجندري.

١١ http://makhzin.org/issues/feminisms/language-occupation/

١٢ Anne Carson, "The Gender of Sound," in *Glass, Irony, God*, (١٩٩٥) ١١٩-١٣٧.

١٣ http://www.rustedradishes.com/love-death-and-the-changing-of-the-seasons/

١٤ https://inkyfada.com/ar/2021/01/18/الفصل3--اللغة العربية-الشاملة/

١٥ أحمد بيضون، كلمن: من مفردات اللغة إلى مركّبات الثقافة (١٩٨٨) ص. ٢٥-٢٩.

١٦ جامع الدروس العربية، ص. ٧٥-٧٦. كما أنّ هناك جمع الجمع للتفخيم الذي يُجمع بالمؤنّث السالم (رجالات مثلًا).

١٧ https://www.aljumhuriya.net/ar/content/سيرة-متحوّلة-هندية-مُستعربة

١٨ Le Guin, "Telling is Listening" in *The Wave in the Mind*, ١٨٥-٢٠٥.

عن الكاتبة

سونيلا موباي كاتبة وباحثة مستقلة ومترجمة أدبية بين الإنجليزية والعربية والأوردية، نالت شهادة الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة نيويورك عام ٢٠١٨، حيث أعدّت أطروحتها عن الصعلكة في الشعر العراقي المعاصر ودرّست مادة الأدب العربي والترجمة الأدبية في جامعة كمبريدج البريطانية في عام ٢٠١٩-٢٠٢٠. نشرت سونيلا كتاباتها بالعربية في الجمهورية ومنشورات أشكال ألوان وترجماتها على منصات ومجلات عدة منها بانيبال، جدلية، *Asymptote*، *Words Without Borders* وغيرها. تتمنى سونيلا أن تساهم في إعادة العربية إلى مكانتها السابقة كلغة تداول وتبادل فكري بين ثقافات الجنوب العالمي.

«جس نبض» سلسلة من الكتيبات تصدرها «مفردات» عن الأسئلة التي تؤثر علينا ككل وكمجتمع. «كل» هم أناس في أي مكان يعتبرون العالم العربي وطنًا ومنزلًا، ويهتمون بحاضره، ويطمحون إلى المشاركة في صياغة مستقبله من خلال مجموعة متنوعة من الممارسات الفنية.